

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۖ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

[النحل: 36]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانُهُ مَقَالََةَ الْكُفَّارِ فِي الْاِعْتِرَاضِ عَلَى رَبِّهِمْ فِي إِرْسَالِ
الرُّسُلِ، وَأَبْطَلَهَا بِذِكْرِ الْحِكْمَةِ مِنْ بَعَثِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ كَانَ جَمْعُ الرُّسُلِ مُضْمًا لِتَوْزِيْعِهِمْ عَلَى الْأُمَمِ،
فَجَاءَ التَّصْرِيحُ بِذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُبَيَّنًا وَظِيفَةَ الرُّسُلِ، وَانْقِسَامَ
النَّاسِ فِي الْإِيمَانِ بِهِمْ، وَلِلْحَثِّ عَلَى الْاِعْتِبَارِ بِآثَارِ أُمَمِهِمُ الْمَكْذِبَةِ
بِقَوْلِهِ سُبْحَانُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾^(١)، "فَفَرِيقٌ اسْتَمَعَ
إِلَى الرُّسُولِ وَاهْتَدَى، وَفَرِيقٌ أَعْرَضَ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، فَحَقَّ عَلَيْهِ
الْعَذَابُ، وَإِذَا كُنْتُمْ فِي شَكٍّ - أَتِيهَا الْمُشْرِكُونَ - فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
قَرِيبًا مِنْكُمْ، فَانظُرُوا مَا حَلَّ بِالْمُكَذِّبِينَ، مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطَ،
وَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ أُمَرِهِمْ، لَعَلَّكُمْ تَعْتَبِرُونَ بِمَا حَلَّ بِهِمْ"^(٢).

العلاقة بين قيام
الحُجَّةِ بِبَعْثِ
الرُّسُلِ، وبيان
وظيقتهم،
وعاقبة
مُكَذِّبِهِمْ

❖ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(١) ﴿بَعَثْنَا﴾: مِنَ الْفِعْلِ بَعَثَ يَبْعَثُ بَعَثًا، وَابْتِغَاءً وَالْعَيْنُ وَالنَّاءُ أَصْلُ
وَاحِدٌ، وَهُوَ الْإِثَارَةُ^(٣)، وَمِنْهُ: بَعَثَهُ مِنْ نَوْمِهِ فَانْبَعَثَ: أَيْقَظَهُ وَأَهْبَاهُ،
وَانْبَعَثَ فِي السَّيْرِ: أَسْرَعَ، فَالْمَعْنَى الْعَامُّ هُوَ: إِثَارَةُ (الْحَيِّ) مِنْ مَكَانٍ
يَلْزَمُهُ بَقْوَةٌ، فَيَنْدَفِعُ نَاهِضًا أَوْ مُبْتَدِعًا، كَبَعَثَ النَّائِمَ وَالْبَعِيرَ، وَمِنْ

(١) البقاعِي، نظم الدرر: 11 / 156.

(٢) إبراهيم القطان، تيسير التفسير: 2 / 315.

(٣) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

ذَلِكَ بَعَثَ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ، وَهُوَ فِي كُلِّ الْقُرْآنِ بِهَذَا الْمَعْنَى، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: 52]، وَقَدْ يَخْرُجُ عَنْهُ لِمَعَانٍ أُخْرَى فَرَعِيَّةٌ، مِنْهَا: الْإِثَارَةُ وَالْدَّفْعُ نَحْوَ عَمَلِ شَيْءٍ مَا، وَكَذَلِكَ إِنْهَاضُ رَسُولٍ أَوْ نَبِيٍّ، أَوْ مَلِكٍ، أَوْ حَكَمٍ، أَوْ نَقِيبٍ⁽¹⁾، وَيَرِدُ الْبَعْثُ عُمُومًا فِي الْقُرْآنِ عَلَى سِتَّةِ أَوَجِهٍ، هِيَ: الْإِلَهَامُ، وَالْإِحْيَاءُ، وَالْإِقْطَاطُ، وَالتَّسْلِيْطُ، وَالْإِرْسَالُ، وَالنَّصَبُ⁽²⁾، وَالبَعْثُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، يُرَادُ بِهِ إِرْسَالُ الرُّسُلِ إِلَى الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ.

(2) ﴿وَأَجْتَنِبُوا﴾: أَصْلُهُ (جَنَبَ)، وَالْجَيْمُ وَالنُّونُ وَالْبَاءُ، أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ أَحَدُهُمَا: النَّاحِيَّةُ، وَالْآخَرُ الْبُعْدُ⁽³⁾، وَمِنْهُ الْجَنْبُ، وَالْجَانِبُ، وَالْجَنْبَةُ: شِقُّ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، وَمِنْ كَوْنِ الْجَنْبِ نَاحِيَّةً خَارِجِيَّةً جَاءَ مَعْنَى الْبُعْدِ وَالْإِبْعَادِ⁽⁴⁾، فَالْجَارُ الْجَنْبُ، أَي: الْبَعِيدُ⁽⁵⁾، فَلَا جِتَابُ الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي نَاحِيَّةٍ بَعِيدًا عَنِ الطَّاغُوتِ.

(3) ﴿الطَّاغُوتُ﴾: الطُّغُوْى، وَالطَّاغِيَّةُ: الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ⁽⁶⁾، وَالطَّاءُ وَالغَيْنُ وَالْحَرْفُ الْمَعْتَلُ، أَصْلٌ صَحِيحٌ مُتَقَاسٌ، وَهُوَ مَجَاوِزُهُ الْحَدَّ⁽⁷⁾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11]، وَكُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ حَدَّهُ حَتَّى غَطَّى مَا حَوْلَهُ فَقَدْ طَغَى: كَأَعْلَى الْجَبَلِ الْمُسْتَصْعَبِ وَنَحْوِهِ، وَكَمَاءِ الْبَحْرِ بِمَا ذُكِرَ مِنْ وَصْفِهِ، وَكَالْدَمِ يَبْرُوزُ حُمْرَتِهِ مِنَ الْجِلْدِ⁽⁸⁾.
وَالطَّاغُوتُ: الْكَاهِنُ وَالشَّيْطَانُ، وَكُلُّ رَأْسٍ فِي الضَّلَالَةِ⁽⁹⁾، فَيَحْمَلُ الطَّاغُوتُ الْمَأْمُورُ بِاجْتِنَابِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى كُلِّ مَعْبُودٍ، مِنْ حَجَرٍ أَوْ صُورَةٍ أَوْ شَيْطَانٍ⁽¹⁰⁾، وَقَدْ قِيلَ: "وَالطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْمُرَادُ: اجْتَنِبُوا مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، مِمَّا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ، وَيَشْمَلُ الطَّاغُوتُ الشَّيْطَانَ وَالْكَاهِنَ وَالصَّنَمَ، وَكُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالٍ".

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (بعث).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعيان التواظر: 204 - 205.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (جنب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جنب).
(6) الخليل، العين: (طغو - طغي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغي).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (طغو - طغي).
(9) الجوهرى، الصحاح: (طغو - طغي).
(10) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 128.

(4) ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾: مِنَ الْفِعْلِ (حَقَّ)، والحاء والقاف أصل واحد، وهو يدلُّ على إحكام الشيء وصِحَّتِهِ، فالحقُّ نقيضُ الباطلِ، ويُقال: حَقَّ الشَّيْءُ: وَجَبَ⁽¹⁾، وفي الحديث: "أَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ"⁽²⁾، أي: واجِبَهُ، من غَضِّ البَصَرِ، وردَّ السَّلامِ وغيره⁽³⁾، ومنهُ الحَقَّةُ مِنَ الْإِبِلِ الَّتِي قَدْ اسْتَكَمَلَتْ ثَلَاثَ سَنِينَ، سُمِّيَتْ حَقَّةً؛ لِأَنَّهَا قَدْ اسْتَحَقَّ الرُّكُوبُ عَلَيْهَا وَالْحَمْلُ⁽⁴⁾، ويُقال: لِلْمَوْجِدِ بِحَسَبِ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ حَقٌّ، وَلِهَذَا يُقَالُ: فِعْلُ اللَّهِ تَعَالَى كُلُّهُ حَقٌّ⁽⁵⁾، ومنهُ ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَلَةُ﴾ في هَذِهِ الْآيَةِ مَعْنَاهَا: وَجَبَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، فَلَمْ يُوَفِّقْهُ اللَّهُ ﷻ⁽⁶⁾.

(5) ﴿الضَّلَلَةُ﴾: مِنَ الْفِعْلِ (ضَلَّ)، وَالضَّادُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَهُوَ ضِيَاعُ الشَّيْءِ وَذَهَابُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ⁽⁷⁾، فَضَلَّ الشَّيْءُ: خَفِيَ وَغَابَ، وَمِنْهُ ضَلَّ الْمَاءُ فِي اللَّبَنِ: غَابَ، وَأَضَلَّتْ الْمَيْتَ: دَفَنْتَهُ، وَالشَّيْءُ: غَيَّبْتَهُ، وَالضَّلُّ: الْمَاءُ الَّذِي يَجْرِي تَحْتَ الصَّخْرَةِ، أَوِ الَّذِي لَا تُصِيبُهُ الشَّمْسُ، وَيَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِي: غِيَابُ الشَّيْءِ فِي أَثْنَاءِ شَيْءٍ حَتَّى لَا تُمَيَّزَ هَذَا مِنْ ذَاكَ⁽⁸⁾، وَالضَّلَالُ وَالضَّلَالَةُ هُوَ ضِدُّ الْهُدَى وَالرَّشَادِ، وَتَقُولُ: ضَلَّتَ تَضِلُّ، هَذِهِ اللَّغَةُ الْفَصِيحَةُ، وَضَلَّتْ تَضِلُّ ضَلَالًا وَضَلَالَةً⁽⁹⁾، وَيَأْتِي الضَّلَالُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى عَشْرَةِ وُجُوهِ: الِاسْتِدْلَالُ فِي الْحُكْمِ، وَالْغَوَايَةِ، وَالْخَسْرَانِ، وَالشَّقَاءُ، وَالْبُطْلَانُ، وَالْخَطَأُ، وَالْهَلَاكُ، وَالنَّسْيَانُ، وَالْجَهْلُ، وَالْعَاشِرُ: الضَّلَالُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْهُدَى⁽¹⁰⁾، وَهَذَا الْأَخِيرُ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ، بِدَلِيلِ مُقَابَلَتِهِ بِالْهُدَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَلَةُ﴾.

(6) ﴿فَسِيرُوا﴾: هُوَ أَمْرٌ مِنَ الْفِعْلِ (سَارَ)، وَالْمَصْدَرُ السَّيْرُ، وَالسَّيْنُ وَالْيَاءُ وَالرَّاءُ، أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُضِيِّ وَجَرِيَانٍ، يُقَالُ: سَارَ يَسِيرُ سَيْرًا، وَذَلِكَ يَكُونُ لَيْلًا وَنَهَارًا⁽¹¹⁾، وَالسَّيْرَةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَقَّق).

(2) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (2465).

(3) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (حَقَّق).

(4) ابن الجوزي، غريب الحديث: 227/1.

(5) الراغب، المفردات: (حَقَّق).

(6) نخبة من العلماء، التفسير المبسر، ص: 271.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، (ضَلَّ).

(8) جبل، للعجم الاشتقاق للوُضَل، (ضَلَّ).

(9) ابن منظور، لسان العرب: (ضَلَّ).

(10) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر: 407 - 408.

(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سِير).

القافلة السَّائِرَةُ، والسَّيْرَةُ أصلُها هيئة السَّيْرِ أو الامتداد والتَّكْوِينُ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَتْ فِي هَيْئَةِ الْحَيَاةِ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّرْكِيبِ إِلَّا مَا هُوَ بِأَحَدِ هَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ⁽¹⁾. "وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ [سبأ: 18]، أي: جعله بمقدار يسيرون، ويبيتون في قرى غير متباعدة، ﴿سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: 18]، أي: آمنين من الخوف والظُّمَأُ والجوع"⁽²⁾، واختلَفُوا فِي مَعْنَى السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ، فَقِيلَ: حَثٌّ عَلَى السَّيَاحَةِ فِي الْأَرْضِ بِالْجِسْمِ، وَقِيلَ: حَثٌّ عَلَى إِجَالَةِ الْفِكْرِ، وَمُرَاعَاةِ أَحْوَالِهِ⁽³⁾، فَيُحْمَلُ السَّيْرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؛ عَلَى كِلَا الْمَعْنَيْنِ: بِسَفَرِ الْأَبْدَانِ وَتَدَبُّرِ الْجَنَانِ فِي آثَارِ الْأَمَمِ الْمَكْذِبَةِ لِرُسُلِهَا.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

دَعْوَةُ الرُّسُلِ
جَمِيعًا إِلَى
التَّوْحِيدِ، وَبَيَانِ
أَنَّ النَّاسَ
يَنْقَسِمُونَ إِلَى
سَقِيٍّ وَسَعِيدٍ

يُخْبِرُ سُبْحَانَهُ أَنَّ حُجَّتَهُ قَدْ قَامَتْ عَلَى جَمِيعِ الْأَمَمِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ إِلَّا وَبَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا، وَكُلُّهُمْ مُتَّفَقُونَ عَلَى دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ وَدِينٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَرْكُ عِبَادَةِ غَيْرِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْأَوْثَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُتَّخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا، فَانْقَسَمَتِ الْأَمَمُ بِحَسَبِ اسْتِجَابَتِهَا لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ وَعَدَمِهَا قِسْمَيْنِ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ فَاتَّبَعَ الْمُرْسَلِينَ، وَمِنْهُمْ الْمَعَانِدُ الَّذِي اتَّبَعَ سَبِيلَ الْغَيِّ فَوَجَبَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ، بِالْأَبْدَانِ وَالْقُلُوبِ، لِلنَّظَرِ فِي مَالِ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ دَمَارٍ وَهَلَاكِ، بِغَرَضِ الْأَدْكَارِ وَالْعِظَةِ⁽⁴⁾.

(1) جبل، العجم الاشتقاقي المؤصل: (سير).

(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (سار).

(3) الراغب، المفردات: (سير).

(4) السَّعْدِي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 440، ونخبة من العلماء، التفسير لليسر، ص: 271.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾:

عُطِفَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، عَلَى قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بِالْوَاوِ الَّتِي تُفِيدُ مُطْلَقَ الْجَمْعِ؛ تَكْمِلَةً لِإِبْطَالِ شُبْهَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾، وَهُوَ إِبْطَالُ بِطَرِيقَةِ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ، لَزِيَادَةِ تَقْرِيرِ الْحُجَّةِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، بَيَانٌ لِمُضْمُونِ جُمْلَةٍ ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾⁽¹⁾.

دلالة تضافر (لام) القسم وقْد:

وَرَدَ الْفِعْلُ ﴿بَعَثْنَا﴾ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، مُؤَكِّدًا بِاللَّامِ الْمُوَطِّئَةِ لِلْقَسَمِ، وَحَرْفِ التَّحْقِيقِ، وَلَوْلَا هَذِهِ اللَّامُ لَمْ يُعْلَمَ أَنَّ فِي الْكَلَامِ قِسْمًا مُقَدَّرًا، فَقَدْ مَهَّدَتْ لَهُ الْجَوَابَ، وَلِذَا تُسَمَّى مُمَهَّدَةً وَمُؤَدِّنَةً⁽²⁾، وَقَدْ دَخَلَتْ عَلَى (قَدْ) مُبَالَغَةً فِي التَّأْكِيدِ، وَكَثُرَ فِي الْكَلَامِ اقْتِرَانُ جُمْلَةٍ جَوَابِ الْقَسَمِ بِ (قَدْ)؛ لِأَنَّ الْقَسَمَ يُهَيِّئُ نَفْسَ السَّامِعِ لِتَوَقُّعِ خَبَرٍ مُهِمٍّ، فَيُؤْتِي بِ (قَدْ)؛ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ أَمْرٍ مُتَوَقَّعٍ، وَالْغَرَضُ مِنْ تَأْكِيدِ هَذَا الْخَبَرِ هُوَ حِجَاغُ الْكُفَّارِ وَإِبْطَالُ شُبْهَتِهِمْ بِالتَّعَلُّلِ بِالْقَدَرِ عَلَى الضَّلَالِ، وَالْاعْتِرَاضِ عَلَى رَبِّهِمْ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَكَذَلِكَ تَنْظِيرُ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ رُسُلَهَا، بِحَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي تَكْذِيبِهِمْ رِسَالَاتِ مُحَمَّدٍ ﷺ⁽³⁾.

دلالة التعبير بالماضي ﴿بَعَثْنَا﴾:

وَرَدَ الْفِعْلُ ﴿بَعَثْنَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ

إِبْطَالُ شُبْهَةِ
الْكُفَّارِ، بِزِيَادَةِ
تَقْرِيرِ حُجَّتِهِ
بَعَثِ الرُّسُلِ

بَيَانُ التَّأْكِيدِ عَلَى
إِرْسَالِ الرُّسُلِ،
وِاقَامَةِ الْحُجَّةِ
عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 149.

(2) الشَّهَاب، عناية القاضي: 2/ 173.

(3) الرَّمْخُسَرِيُّ الرَّمْخُسَرِيُّ، الْكَشَافُ: 1/ 158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 137.

تأكيد أنَّ سُنَّةَ
الله ماضِيَّةٌ في
بَعَثِ الرُّسُلِ إلى
الْأُمَمِ لِلتَّقَدُّمِ
وَالْمُتَأَخَّرِ

رَسُولًا، بِصِغَةِ الْمَاضِي الْمَصْحُوبِ بِ (قَدْ) الدَّالَّةِ عَلَى التَّحْقِيقِ؛ مُبَالَغَةً فِي الْإِخْبَارِ بِتَحَقُّقِ وَقُوعِ بَعَثِ الرُّسُلِ، كَمَا أَنَّ الْإِخْبَارَ عَنِ الشَّيْءِ بِصِغَةِ الْمَاضِي يَقْتَضِي كَوْنَ الْمَخْبَرِ عَنْهُ مُتَقَدِّمًا عَلَى ذَلِكَ الْإِخْبَارِ⁽¹⁾، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ سَلَفَتْ رَسُولًا، فَقَامَتْ حُجَّتُهُ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَالْإِخْبَارُ كَذَلِكَ بِصِغَةِ الْمَاضِي مُضْمَنُهُ الدَّوَامُ وَالِاسْتِمْرَارُ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ أَوْ مُتَأَخَّرَةٍ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا⁽²⁾، وَإِرسال الرُّسُلِ التَّزَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ بَبَيَانِ الْمَنْهَجِ، وَإيضاح السَّبِيلِ الْحَقِّ لِكَيْ لَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ، بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَنْ اصْطَفَى مِنْ عِبَادِهِ، فَحَمَلُوا إِلَيْهِمْ مَرَادِهِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّشْرِيعِ بِوُضُوحٍ وَإِعْجَازٍ.

دَلَالَةُ الْإِسْنَادِ فِي: ﴿بَعَثْنَا﴾:

التَّكْذِيبُ بِرُّسُلِ
الله الْعَظِيمِ أَمْرٌ
عَظِيمٌ

أُسْنَدُ الْفِعْلِ ﴿بَعَثْنَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، إِلَى ضَمِيرِ الْعَظَمَةِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَا أُسْنَدَ إِلَيْهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَصُدُورُ عِظَامِ الْأُمُورِ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَأَنَّ حُكْمَهُ مُطَاعٌ لَا يَخْلَفُ شَيْءٌ عَنْ إِرَادَتِهِ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا التَّعْيِيرِ يُعْبَرُ بِهِ الْمُلُوكُ وَالْعُظَمَاءُ النَّافِذُ أَمْرُهُمْ وَنَهْيُهُمْ، وَفِيهِ أَيْضًا التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الرُّسُلِ، وَتَفْخِيمُ قَدْرِهِمْ وَإِدْخَالُ الْمَهَابَةِ فِي قُلُوبِ أُمَّمِهِمْ، فَهُمْ مَرْسُلُونَ مِنْ عِنْدِ عَظِيمٍ مُطَاعٍ، وَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْعَظِيمِ عَظِيمٌ، فَوَجَبَ عَلَى الْأُمَمِ تَعْظِيمُ قَدْرِهِمْ، وَالْحَذَرُ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ؛ إِذِ التَّكْذِيبُ بِالْعَظِيمِ أَيْضًا عَظِيمٌ⁽³⁾.

بَلَاغَةُ أَسْلُوبِ الْإِثْفَاتِ فِي الْآيَةِ:

فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ الثَّفَاتُ،

اسْتِذْعَاءُ
الِإِضْغَاءِ
وَالِاهْتِمَامِ بِنَقْلِ
الْكَلَامِ مِنْ مَقَامٍ
إِلَى مَقَامٍ

(1) الْفَخْرُ الرَّازِي، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 283 / 2.

(2) الثَّعَالِبِيُّ، الْجَوَاهِرُ الْحَسَنُ: 377 / 5.

(3) الشَّهَابُ، غَايَةُ الْقَاضِي: 208 / 6.

وهو من أنواع البديع؛ إذ كان ما قبل هذه الآية قد أخبر عن الله بصورة الغائب، في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾، ثم انتقل إلى ضمير المتكلم، بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾، فأتى بـ (نا) التي تدل على التعظيم، وعلو القدر، وتنزله منزلة الجمع، لتعدد صفاته الحميدة، ومواهبه الجزيلة، وحكمة هذا الالتفات وكونه بنون المعظم نفسه؛ أنه هو من أرسل الرسل من عنده، فوجب على أممهم الامتثال، فناسب أن يكون السياق في غاية من التعظيم؛ لأنه متى كان كذلك؛ كان ادعى لامتثال المأمور، فإسناده إلى المتكلم العظيم، أبلغ من إسناده إلى ضمير الغائب، كما أن الالتفات من افتتان العرب في الكلام، وحسن تصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب؛ كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد⁽¹⁾.

دلالة الظرفية في قوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾:

في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، يفيد حرف ﴿فِي﴾ معنى الظرفية، وهي ظرفية احتواء، فاشتملت كل أمة على رسول يدعوها إلى الهدى، ويفهم من الظرفية معنى التمكن والملازمة، أي: رسولاً لا يفارقهم، فليس ماراً بهم كما يمر المرسل بمقالة، أو رسالة يُبلغها إلى القوم ويُغادرهم. كما يستفاد من الظرفية أيضاً الإحاطة الزمانية، ويترتب عليها بطلان ما يقال من أن أهل الفترة جهلوا جهلاً أسقط عنهم اللوم، فما تركت الظرفية في هذه الآية أحداً حتى شملته، وحكمت عليه بالجنة أو النار⁽²⁾.

وأوثر حرف (في) على اللام، في قوله سبحانه: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾

اشتمال كل
زمان على رسول
يقيم الحجة
ويقطع العذر

(1) الرمخشري، الكشف: 1/ 14، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/ 245.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 332، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 207.

رَسُولًا؛ لِأَنَّ حَرْفَ (الْلامِ) يَدُلُّ عَلَى التَّغْلِيلِ، وَأَنَّ بَعَثَ الرَّسُولَ كَانَ لِأَجْلِ الْأُمَّةِ الْمُبْعُوثِ لَهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ هُوَ فِي شُمُولِ الدَّعْوَةِ لِكُلِّ الْأُمَّةِ.

الغرض من تقديم ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾:

الاهتمام ببلوغ
الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ
إلى كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ
الْأُمَمِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ قُدِّمَ الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ ﴿رَسُولًا﴾؛ لِمَا فِي تَقْدِيمِهِ مِنْ مَزِيدِ الْإِعْتِنَاءِ وَالْاهْتِمَامِ، فَاَلْمَقْصَدُ مِنَ الْآيَةِ كَمَا سَبَقَ هُوَ الرُّدُّ عَلَى الْكُفَّارِ، بِأَنَّ حُجَّةَ اللَّهِ قَدْ قَامَتْ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ، إِلَّا وَبَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا⁽¹⁾، فَالاهْتِمَامُ مُنْصَبٌّ عَلَى بُلُوغِ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ، وَلَوْ قُدِّمَ الْمَفْعُولُ بِهِ ﴿رَسُولًا﴾؛ لَكَانَ الْقَصْدُ بَيَانِ عَدَدِ الرُّسُلِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَهُوَ خِلَافُ الْمَقْصُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

احتمالات (أَنْ) في قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾:

تَنَوُّعُ الْمَعْنَى
الْقُرْآنِيَّةِ بِتَنَوُّعِ
التَّخْرِيجَاتِ
النَّحْوِيَّةِ

يَجُوزُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الظُّغُوتَ﴾، أَنْ تَكُونَ (أَنْ) مَصْدَرِيَّةً، فَيَكُونُ الْمَصْدَرُ الْمُؤَوَّلُ مِنْهَا وَمِنْ فِعْلِهَا فِي مَحَلِّ جَرٍّ بِحَرْفِ جَرٍّ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: بِأَنْ أَعْبُدُوا، أَيْ: (بِعِبَادَةِ)، فَيَكُونُ مَنصُوبًا بِنَزْعِ الْخَافِضِ (الباءِ)، وَيَكُونُ الْجَارُّ مُتَعَلِّقًا بِالْفِعْلِ ﴿بَعَثْنَا﴾⁽²⁾.

وَيَجُوزُ أَيْضًا وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ (أَنْ) مُفَسَّرَةً؛ لِأَنَّ الْبَعْثَ فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ⁽³⁾، وَالتَّقْدِيرُ: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا قَائِلًا لَهُمْ: أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ)، فَحَذَفَ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِصَارِ، وَلِكُونَ الْمَعْنَى مَقْهُومًا بِدُونِهِ، وَحَذَفَ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ.

(1) السَّعْدِيُّ، تيسير الكريم الزَّحْمَن، ص: 440.

(2) محمود الضَّافِي، الجدول: 316 / 14.

(3) درويش، إعراب القرآن: 297 / 5.

الغرض من الأمر في ﴿اعْبُدُوا﴾:

أفادَ فعلُ الأمرِ ﴿اعْبُدُوا﴾ في قوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الأمرُ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وإفْرَادِهِ بِالطَّاعَةِ، وإخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ⁽¹⁾؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ دَعْوَةَ كُلِّ الرُّسُلِ مُتَّفِقَةٌ فِي التَّوْحِيدِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: "نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ"⁽²⁾. يَعْني بِذَلِكَ التَّوْحِيدَ، وَزَادَ دَلَالَةَ الْأَمْرِ عَلَى التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾: أَي: اتْرُكُوا كُلَّ مَعْبُودٍ دُونَ اللَّهِ، كَالشَّيْطَانِ وَالكَاهِنِ وَالصَّنَمِ وَكُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى الضَّلَالِ⁽³⁾.

غرض وضع الظاهر موضع المضمَر:

في قوله: ﴿إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، الْأَصْلُ فِي الْكَلَامِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَخْرُجُ عَلَى خِلَافِهِ لِنُكْتَةِ بَلَاغِيَّةٍ، وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أَنْ يُؤْتَى بِعِبَادَةِ (أَنْ اعْبُدُونَا) مُجَارَاةً لِصِغَةِ ﴿بَعَثْنَا﴾، لَكِنَّ النِّظْمَ الْقُرْآنِيَّ جَرَى هُنَا عَلَى وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ، أَوْ إِظْهَارِ مَا حَقُّهُ الْإِضْمَارُ، لِنُكْتَةِ جَلِيلَةٍ، وَهِيَ تَعْظِيمُ قَدْرِ ﷺ، فَهُوَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، وَفِيهِ أَيْضًا نُكْتَةُ التَّنْبِيهِ عَلَى سَبَبِ اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ: وَهُوَ انْفِرَادُهُ بِصِفَةِ الْأُلُوْهِيَّةِ⁽⁴⁾، إِضَافَةً لِمَا فِي طَرِيقَةِ الْإِلْتِفَاتِ مِنْ مَرِيَّةٍ تَنْشِيطِ السَّامِعِ، وَتَلْوِينِ الْخِطَابِ، نَاهِيكَ عَنْ كَوْنِ الْعِبَادَةِ مَلْمَحًا إِبْلَغِيًّا ارْتِكَازِيًّا، تَقُومُ عَلَيْهِ مَضَامِينُ الدَّعْوَةِ، وَهُوَ قَاسِمٌ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ كُلِّ الدِّيَانَاتِ، فَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَحَمَلَ شَعَارَ الدَّعْوَةِ لِلْعِبَادَةِ، وَمَا يُلْخَصُ هَذِهِ

اتِّفَاقُ دَعَاوَاتِ
الرُّسُلِ كَافَّةً فِي
التَّوْحِيدِ، مَعَ
اِخْتِلَافِ الشَّرَائِعِ

بَيَانُ أَنَّ الْمُنْفَرِدَ
بِالْأُلُوْهِيَّةِ، هُوَ
الْمُسْتَحَقُّ وَحْدَهُ
لِلْعِبَادَةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 201/17.

(2) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (3443).

(3) القرطبي، الجامع: 103/10.

(4) الرَّمْخَشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 576/4.

الدعوة قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: 5].

نُكْتَةُ عَطْفِ الْجُمْلَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ بِالْوَاوِ:

تَوْضِيحُ الْمَعَانِي
بِالصَّدِّ، يَجَسَّدُ
قَوْلَ الْمَثَلِ
بِضِدِّهَا تَتِمَّائِزُ
(الْأَشْيَاءُ)

وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ عَطْفُ جُمْلَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ، فَالْأُولَى قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وَجَازَ الْعَطْفُ بَيْنَهُمَا بِالْوَاوِ؛ لِأَنَّ شَرْطَ الْعَطْفِ بِالْوَاوِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ (جَامِعٌ)؛ سَوَاءٌ مُوَافَقَةٌ أَوْ مُضَادَّةٌ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْمُضَادَّةُ فِي حُكْمِ الْمَوَافَقَةِ؛ لِأَنَّ الذَّهْنَ يَتَصَوَّرُ أَحَدَ الضِّدَّيْنِ عِنْدَ تَصَوُّرِ الْآخَرِ⁽¹⁾، وَهَذِهِ الْمُضَادَّةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَ﴿أَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فَإِحْدَاهُمَا لِإِفَادَةِ الْحَثِّ عَلَى فِعْلِ الْعِبَادَةِ، وَالثَّانِيَةُ لِإِفَادَةِ اجْتِنَابِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ سُبْحَانَهُ، فَجُمِعَ بَيْنَهُمَا بِالْوَاوِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَكَامُلِهِمَا، فَلَا تَنْفَعُ عِبَادَةُ اللَّهِ إِلَّا بِشَرْطِ اجْتِنَابِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ⁽²⁾، وَهَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبِوُجُودِ عِنَصَرِي الْعَطْفِ الْمُتَكَامِلَيْنِ - وَهُمَا مُتَضَادَّانِ فِي دَلَالَةٍ كُلٌّ مِنْهُمَا - يُفْهَمُ الْمَعْنَى الشُّمُولِيَّةُ لِلْعِبَادَةِ، قَالَ الشَّعْرَاوِيُّ: "فَهَذَا أَمْرٌ بِالْعِبَادَةِ، وَنَهْيٌ عَنِ الطَّاغُوتِ، وَهَذَا يُسَمُّونَهُ تَحْلِيَّةً وَتَخْلِيَّةً: التَّحْلِيَّةُ فِي أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَالتَّخْلِيَّةُ فِي أَنْ تَتَبَعَدَ عَنِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَى هَذَيْنِ الْعِنَصَرَيْنِ تُبْنَى قَضِيَّةُ الْإِيمَانِ، حَيْثُ نَفْيٌ فِي: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَإِثْبَاتٌ فِي (إِلَّا اللَّهُ)، وَكَأَنَّ النَّاطِقَ بِالشَّهَادَةِ يَنْفِي التَّعَدُّدَ، وَيُثَبِّتُ الْوَاحِدَانِيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَبِهَذَا تَكُونُ قَدْ خَلَيْتَ نَفْسَكَ عَنِ الشَّرِّكَ، وَخَلَيْتَ نَفْسَكَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ"⁽³⁾.

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.

(2) الشَّنْقِيطِيُّ، أَضْوَاءُ الْبَيَانِ: 2/ 374.

(3) الشَّعْرَاوِيُّ، تَفْسِيرُ الشَّعْرَاوِيِّ: 13/ 7917.

سِرُّ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ «وَأَجْتَنِبُوا»:

جاءَ النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: «وَأَجْتَنِبُوا الطَّلُوعُ»⁽¹⁾
 بِالْفِعْلِ «وَأَجْتَنِبُوا»؛ عِوَضًا عَنِ الْفِعْلِ (اتْرَكُوا)، أَوْ مَا شَابَهَهُ؛ لِأَنَّ
 الْاجْتِنَابَ يَزِيدُ عَلَى مُجَرَّدِ التَّركِ بِمَعْنَى الْمُبَاعَدَةِ، وَهَذَا الْمَعْنَى
 مَفْهُومٌ مِنْ اسْتِثْقاقِ الْاجْتِنَابِ مِنَ الْجَانِبِ⁽²⁾، فَيَكُونُ اجْتِنَابُ الطَّاغُوتِ
 بِأَنْ يَكُونَ هُوَ فِي جَانِبٍ، وَالْعَبْدُ فِي جَانِبٍ بَعِيدًا عَنْهُ.

دَلَالَةُ (الفَاءِ) عَلَى التَّفْرِيعِ فِي قَوْلِهِ: «فَمِنْهُمْ»:

لَمَّا أَقَامَ اللَّهُ حُجَّتَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ
 مُتَقَدِّمَةٍ أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ إِلَّا وَبَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا؛ انْقَسَمَتِ الْأُمَمُ بِحَسَبِ
 اسْتِجَابَتِهَا لِدَعْوَةِ الرُّسُلِ وَعَدَمِهَا قِسْمَيْنِ، فَجاءَ النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ فِي
 الْآيَةِ بِفَاءِ التَّفْرِيعِ الَّتِي تُفِيدُ أَنَّ الْكَلَامَ بَعْدَهَا مُتَرَتِّبٌ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي
 قَبْلُهَا⁽²⁾، فَفَرَعَ مِنَ الْأُمَمِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهَا أَنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ، فَاتَّبَعَ
 الْمُرْسَلِينَ، وَمِنْهُمْ الْمَعَانِدُ الَّذِي اتَّبَعَ سَبِيلَ الْغَيِّ، فَوَجِبَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ.

سِرُّ إِسْنَادِ الْهِدَايَةِ إِلَى اللَّهِ دُونَ الصَّلَاةِ:

أَسْنَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: «فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى
 اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ»⁽³⁾، وَلَمْ يُسْنِدِ الْإِضْلَالَ إِلَى ذَاتِهِ
 الْمُقَدَّسَةِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلُ لَهُ تَحْسِينًا لِلْفِعْلِ، وَتَعْلِيمًا لِعِبَادِهِ الْأَدَبَ،
 وَنَظِيرَهُ: «وَعَلَى اللَّهِ فَضْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ»⁽⁴⁾ [التَّحَلُّ: 9]، وَكَذَلِكَ لِأَنَّ
 النَّاسَ لَمَّا أَمُرُوا بِأَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ؛ افْتَرَقُوا فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا
 هَدَاهُ اللَّهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَفَرِيقًا لَازَمَ الشُّرْكَ وَالصَّلَاةَ، فَلَمْ يَطْرَأْ
 عَلَيْهِمْ حَالٌ جَدِيدٌ، فَحَسُنَ مَوْضِعُ لَفْظِ: «حَقَّتْ» هُنَا دُونَ أَنْ يُقَالَ:
 (أَضَلَّهُ اللَّهُ)؛ لِأَنَّ ضَلَالَهُمْ قَدِيمٌ مُسْتَمِرٌّ اخْتَارَوْهُ لِأَنفُسِهِمْ⁽⁴⁾.

تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ
 يَكُونُ بِالْبُعْدِ عَنْ
 أَمَاكِنِ الشُّرْكِ
 وَالشُّرَكِيِّينَ

بَعَثَ الرُّسُلَ
 قَسَمَ النَّاسَ إِلَى
 مُهْتَدٍ سَعِيدٍ،
 وَشَقِيٍّ عَنِيدٍ

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرَاتِ
 الْقُرْآنِيَّةِ، فِي
 تَعْلِيمِ الْعِبَادِ
 الْأَدَبَ مَعَ الذَّاتِ
 الْإِلَهِيَّةِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جنب).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 / 137.

(3) السمين الحلبي، الدَّرِّ للصون: 5 / 301.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 / 90.

بَلَاغَةُ المَوْصُولِ
بِالإِشْعَارِ بِعِلَّةِ
الحُكْمِ

الهِدَايَةُ وَالْإِضْلَالُ
مِنَ اللَّهِ ﷻ،
وَلَكِنَّهُمَا لِلْعَبْدِ
اخْتِيَارٌ يُحَاسَبُ
عَلَيْهِ

وَزُنُّ لِلضَّادِ وَوَزْنُ
الْمَرَّةِ، وَأَثَرُهُمَا فِي
الْقَلَّةِ وَالكَثْرَةِ

الغرض من الاسم الموصول «مَنْ»:

في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، ورد الاسم الموصول المشترك «مَنْ» للدلالة على المهتدين والضالين كليهما، فهو يُفيد العموم؛ لأنه مُتناوِل في نفسه للعاقل مُفْرَدًا كان أو مُتَنًى أو مَجْموعًا، مُذَكَّرًا أو مُؤَنَّثًا، وكذلك لأنَّ وَضْعَ المَوْصُولِ مَوْضِعَ الاسمِ يَسْمَحُ بِوَصْفِهِ بِجُمْلَةِ الصَّلَةِ، فَبَيَّنَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أَنَّ سَبَبَ اهْتِدَاءِ المهْتَدِينَ هُوَ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَبَيَّنَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أَنَّ سَبَبَ ضَلَالِ الضَّالِّينَ هُوَ بِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْ أَنَّهُمْ يَصِيرُونَ إِلَى الشَّقَاوَةِ، فَالتَّعْبِيرُ بِالمَوْصُولِ غَرَضُهُ الإِشْعَارُ بِعِلَّةِ الحُكْمِ⁽¹⁾.

سِرُّ وَجوب الضلالة بلفظ: «حَقَّتْ عَلَيْهِ»:

جاء التعبير في جانب الضلالة بلفظ «حَقَّتْ عَلَيْهِ»، دون إسناد الإِضْلَالِ إِلَى اللَّهِ، لما ذَكَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّ الضَّلَالََةَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ لِاتِّخَاذِهِمُ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ لَمَّا نَهَاهُمْ عَنِ الضَّلَالَةِ، فَقَدْ كَانَ تَصْمِيمُهُمْ عَلَيْهَا إِبْقَاءً لِضَلَالَتِهِمْ السَّابِقَةِ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ، أَيَّ: ثَبَتَتْ وَلَمْ تَرْتَفِعْ، وَفِي ذَلِكَ أَيْضًا إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ بَقَاءَ الضَّلَالَةِ، مِنْ اخْتِيَارِ أَنْفُسِهِمْ⁽²⁾، وَإِنْ قَدَّرَهَا اللَّهُ فِي الْأَزَلِ، فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ؛ فَبِفَضْلِهِ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَمَنْ أَضَلَّهُ؛ فَبِعَدْلِهِ، وَلَهُ الْحَمْدُ⁽³⁾.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ «الضَّلَالَةُ»:

في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، ورد النظم القرآني بلفظ: «الضَّلَالَةُ»، دون لفظ (الضلال)، فَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا، وَقَالُوا: لَفْظُ الضَّلَالَةِ أَبْلَغُ مِنْ لَفْظِ الضَّلَالِ⁽⁴⁾،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 113 / 5.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 150 / 14.

(3) ابن أبي العز، شرح الطحاوية، ص: 107.

(4) ابن الأثير، اللؤلؤ السائر: 168 / 2.

فَالضَّلَالَةُ تَكُونُ مَصْدَرًا، وَتَكُونُ عِبَارَةً عَنِ الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ، وَتَوَجِيهُ
الآيَةِ عَلَى هَذَا أَنَّ الضَّلَالَةَ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ، فَفَقَدُوا الْهُدَى دَفْعَةً وَاحِدَةً،
وَذَهَبَ فَرِيقٌ آخَرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالضَّلَالِ،
فَكِلَاهُمَا مَصْدَرٌ قَوْلُنَا: ضَلَّ يَضِلُّ ضَلَالًا وَضَلَالَةً، كَمَا يُقَالُ: لَذَّ يَلْدُ
لَذَاذَا وَلَذَاذَةً، فَتَأْنِيثُهُ لَفْظِيٌّ مَحْضٌ، وَالْعَرَبُ يَسْتَشْعِرُونَ التَّأْنِيثَ
غَالِبًا فِي أَسْمَاءِ أَجْنَاسِ الْمَعَانِي، مِثْلَ الْغَوَايَةِ وَالسَّفَاهَةِ، فَالتَّأْنِيثُ
لِجَرْدِ تَأْنِيثِ اللَّفْظِ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ التَّاءِ مَعْنَى الْوَحْدَةِ؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَ
أَجْنَاسِ الْمَعَانِي لَا تُرَاعَى فِيهَا الْمُشْخَصَاتُ⁽¹⁾.

الغرض من الإظهار في قوله: ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾:

في قوله: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، إظهار في
مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ، فَلَمْ يَقُلْ: (فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَتُهُمْ)، بَلْ أَظْهَرَ
الضَّمِيرَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وَالسَّرُّ فِي ذَلِكَ دَلَالَةُ التَّنْبِيهِ
عَلَى سَبَبِ تَعَذِّيبِهِمْ وَمَوْجِبِهِ، وَهُوَ تَكْذِيبُ الرُّسُلِ⁽²⁾، وَفِي ذَلِكَ تَهْدِيدٌ
وَتَخْوِيفٌ وَتَقْرِيعٌ لَهُمْ عَلَيْهِ.

الغرض من التعبير بالأمر ﴿فَسِيرُوا﴾:

وَرَدَ فِعْلُ الْأَمْرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ الْخِطَابَ
لِمَعْشَرٍ قُرَيْشٍ بِأَنْ يَسِيرُوا فِي أَكْنَافِ الْأَرْضِ لِيَنْظُرُوا ﴿كَيْفَ كَانَ
عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، مِنْ عَادٍ وَتَمَوْدٍ، وَمَنْ سَارَ سِيرَتَهُمْ مِمَّنْ حَقَّتْ
عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ حِينَ يُشَاهِدُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدِيَارِهِمْ
آثَارَ الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ⁽³⁾، وَهُمْ يَسْتَحَقُّونَ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ السَّاحِقَةَ،
وَالتَّأْنِيهِاتِ الْمَاحِقَةَ؛ لِأَنَّهُمْ مَكْذِبُونَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ، فَهُمْ يَعْمَدُونَ

تَكْذِيبُ الرُّسُلِ
مَوْجِبٌ لِلْعَذَابِ
وَالْخُسْرَانِ

تَهْدِيدٌ قُرَيْشٍ
بِمَصِيرِ الْأُمَمِ
الْمَكْذِبَةِ قَبْلَهَا مِنْ
بَلِيغِ الْبَيَانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 92/8.

(2) الرّمخشري، الكشاف: 351/2.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 113/5.

في تكذيبهم إلى الإنكار والمناكفة والكيد، وذلك ديدن المشركين في كلِّ العصور، ولا ريب أنَّ النَّظْرَ في عواقب من كفر، من شأنه أن يكون المزدجر، ممَّا يمنعهم من الفساد والضَّلال بكلِّ الصُّور.

بَلَدْعَةُ الْاِلْتِفَاتِ فِي ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾:

في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾، الْاِلْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ إِلَى الْخِطَابِ ﴿فَسِيرُوا﴾، وَنُكْتَتُهُ الْبَلَاغِيَّةُ بِأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْأَمَمَ السَّابِقَةَ وَحَالَهَا مَعَ الرُّسُلِ؛ التَّفَتَّ إِلَى كُفَّارٍ قَرِيشٍ تَوْبِيخًا لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ، وَتَحْذِيرًا لَهُمْ مِنْ مَصِيرِ كَمَصِيرِهِمْ⁽¹⁾، وَمِنْهَا أَنَّ الْكَلَامَ إِذَا نُقِلَ مِنْ أَسْلُوبٍ إِلَى أَسْلُوبٍ؛ كَانَ ذَلِكَ أَحْسَنَ تَطْرِيْقٍ لِنَشَاطِ السَّامِعِ، وَإِقَاطًا لِلْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، مِنْ إِجْرَائِهِ عَلَى أَسْلُوبٍ وَاحِدٍ، فَالْاِلْتِفَاتُ يَشْدُ السَّامِعَ وَيَهْزُهُ، لِيَكُونَ الْكَلَامُ أَوْقَعَ فِي نَفْسِهِ، وَأَدْعَى لاسْتِجَابَتِهِ.

نُكْتَةُ وُرُودِ ﴿كَانَ﴾ مِنْ غَيْرِ تَاءِ التَّأْنِيثِ:

في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، جُرِدَتْ ﴿كَانَ﴾ مِنْ تَاءِ التَّأْنِيثِ مَعَ إِسْنَادِهَا إِلَى لَفْظِ مُؤَنَّثٍ، بِنَاءً عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي النَّحْوِ مِنْ جَوَازِ تَجْرِيدِ الْفِعْلِ مِنْ عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ إِذَا كَانَ مَرْفُوعُهُ غَيْرَ حَقِيقِيِّ التَّأْنِيثِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: 67]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: 51]، وَ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾⁽¹⁾ [النمل: 14]، وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا أُسْنِدَ فِيهِ الْفِعْلُ دُونَ عَلَامَةِ إِلَى الْمُؤَنَّثِ⁽²⁾، وَكَذَلِكَ جَاءَ بِالتَّذْكِيرِ نَظْرًا إِلَى الْمَعْنَى، فَمَعْنَى الْعَاقِبَةِ هُوَ الْجَزَاءُ⁽³⁾، وَهُوَ لَفْظٌ مُذَكَّرٌ، فَذَكَرَ لَفْظَ ﴿كَانَ﴾ مُرَاعَاةً لَهُ فِي الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ، وَهَذِهِ الْأَلْوَانُ مِنَ الِاسْتِعْمَالَاتِ الْمُنَوَّعَةِ

تَنْوِيْعُ الْقَامِ
لِجَلْبِ الْاِتِّبَاهِ،
وَاسْتِذْعَاءِ
الْإِجَابَةِ

عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ
الْعَذَابُ الْمَقِيمُ لَا
مَحَالَةَ

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 744/4.

(2) ابْنُ عَطِيَّةٍ، لِحَرِّ الْوَجِيزِ: 72/3، وَالسَّنْفِيْطِيُّ، أَضْوَاءُ الْبَيَانِ: 171/6، وَدُرُوْشٌ، إِعْرَابُ الْقُرْآنِ:

72/3.

(3) ابْنُ سَلَامٍ، التَّفْسِيرُ: 647/2.

تزيد المعنى دقة، وتكسب العبارة جمالاً، وتعطي صورة عن سعة اللغة العربية، وقدرة أهلها على التصرف ببراعة ووعي في صيغها وعباراتها، بما هو مفيد وإيجابي، ومُثر للمضمون.

توجيه التشابه اللفظي في الآية:

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، وقال سبحانه: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: 30]، ووجه المغايرة بينهما من جهة السياق: أن آية الأعراف يسبقها قوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29]، فلما كان الناس يتفرقون من حيث الاستجابة لما أمر الله؛ ناسبه تقسيم الناس إلى فريقين، ولما تقدم ذكر اسم الجلالة وما ينفي الشرك؛ ناسبه أن يكون الفاعل ضميراً مستتراً، ولما ذكر الفعل ﴿هَدَى﴾ [الأعراف: 30]؛ ناسبه تذكير الفعل ﴿حَقَّ﴾ [الأعراف: 30]، وكذلك ظاهر السياق أن يقال: (وفريقاً حق عليه)، لكن لما كان التفرق دالاً على التعدد، وأريد أن يشمل الحكم كل فرد من أفراد الفريق؛ ناسبه ذكر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 30]، أما آية النحل؛ فقد بدأت بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فلما ذكر الكل؛ ناسبه ذكر الجزء: ﴿فَمِنْهُمْ﴾، ولما كان الأمر باجتنب الطاغوت سببه الشرك؛ ناسبه تأكيد الألوهية، بجعل الفاعل اسماً ظاهراً، ولما كانت الضلالة عبادة الطاغوت، وهي مؤنث؛ ناسبه ذكر تأنيث الفعل ﴿حَقَّتْ﴾، ولما لم يذكر تفرقهم؛ ناسبه ذكر ﴿عَلَيْهِ﴾.

هذا من جهة السياق، ويمكن توجيه سبب تذكير الفعل وتأنيثه في الآيتين من جهة أخرى، وهي النظر إلى جانب اللفظ وجانب المعنى، فأما جانب اللفظ؛ فيلاحظ أن الحروف الحواجز بين الفعل

دقة البيان
القرآني في تذكير
الألفاظ وتأنيثها
حسب المعاني

والفاعل في قَوْلِهِ تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: 30]، أَكْثَرُ مِنْهَا في قَوْلِهِ: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَوَاجِزَ بَيْنَ الْفِعْلِ والفاعل، كُلَّمَا كَثُرَتْ؛ كَانَ حَذْفُ (التَّاءِ) أَحْسَنَ.

وَأَمَّا جَانِبُ الْمَعْنَى؛ فَإِنَّ (مَنْ) في سُوْرَةِ النَّحْلِ واقِعَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ، وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لَفْظًا، فيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، أَيُّ: مِنَ الْأُمَمِ أُمَمٌ ضَلَّتْ، أَوْ حَقَّتْ عَلَيْهَا الضَّلَالَةُ، وَلَوْ قَالَ بَدَلَ ذَلِكَ: (ضَلَّتْ)؛ لَتَعَيَّنَتْ التَّاءُ، وَمَعْنَى الْكَلَامَيْنِ وَاحِدٌ، وَإِذَا كَانَ مَعْنَى الْكَلَامَيْنِ وَاحِدًا؛ كَانَ إِثْبَاتُ التَّاءِ أَحْسَنَ مِنْ تَرْكِهَا؛ لِأَنَّهَا ثَابِتَةٌ فِيمَا هُوَ فِي مَعْنَاهُ⁽¹⁾.

❁ الفُرُقُ الْمُعْجِمِيَّةُ:

(بَعَثَ) وَ(أَرْسَلَ):

الْبَعْثُ أَعَمُّ
مِنَ الْإِرْسَالِ
مُتَعَلِّقًا،
وَأَقْوَى دَلَالَةً فِي
اسْتِعْمَالِهِ فِي
هَذَا السِّبَاقِ

الْبَعْثُ فِي اللُّغَةِ: الْإِثَارَةُ وَالتَّوْجِيهُ وَالتَّنْبِيهُ⁽²⁾، ثُمَّ يَخْتَلِفُ الْبَعْثُ بِاخْتِلَافٍ مَا عُلِّقَ بِهِ، فَتَارَةً يَكُونُ عَامًّا فِي مَعْنَى التَّوْجِيهِ وَالْإِثَارَةِ، فَيُقَالُ: بَعَثْتُ الْبَعِيرَ، أَيُّ: سَيَّرْتُهُ، وَبَعَثْتُ رَسُولًا، أَيُّ: وَجَّهْتُهُ، وَالْبَعْثُ إِيقَاضُ مِنَ النَّوْمِ، وَتَنْبِيهُ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالضَّلَالَةِ، وَإِحْيَاءُ اللَّهِ لِلْمَوْتَى بَعَثَ لَهُمْ⁽³⁾، وَتَجْتَمِعُ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي التَّوْجِيهِ وَالتَّنْبِيهِ.

وَالْإِرْسَالُ فِي اللُّغَةِ: تَوْجِيهُ الشَّيْءِ بِرَفْقٍ وَتُوْدَةٍ وَرَحْمَةٍ، وَمِنْهُ التَّرْسُلُ فِي الْكَلَامِ وَالْمَشْيِ؛ أَيُّ: الْهُدُوءُ وَالتَّائِي، وَعَدَمُ الْعَجَلَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: عَلَى رِسْلِكَ، أَيُّ: تَرَفَّقْ، وَتَأَنَّ فِي الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ، وَالْإِسْتِرْسَالُ: الطَّمَأْنِينَةُ وَالسُّكُونُ.

وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الْبَعْثَ وَالْإِرْسَالَ يَشْتَرِكَانِ فِي مَعْنَى لُغَوِيٍّ عَامٍّ هُوَ التَّوْجِيهِ.

(1) السَّهْلِيُّ، نَتَائِجُ الْفِكْرِ، ص: 132.

(2) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (بَعَثَ).

(3) الرَّازِبِيُّ، الْفُرْدَاتُ: (بَعَثَ).

وَيَخْتَلِفَانِ فِي أَنَّ الْإِرْسَالَ: يَتَمَيَّزُ بِالتَّؤَدَةِ وَالرَّفَقِ وَالْهُدُوءِ، وَابْتَعَثَ: يَتَمَيَّزُ بِمَلَمَحِ التَّنْبِيهِ وَالْإِيقَاطِ⁽¹⁾، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْإِرْسَالِ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ فِيهِ إِثَارَةً وَتَهْيِيجًا، كَبَعَثَ النَّائِمَ، وَبَعَثَ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ⁽²⁾، وَلَا يُمَكِّنُ اسْتِعْمَالَ الْإِرْسَالِ فِيهِمَا.

(اجْتَنِبُوا) و(لا تقربوا):

يَفْتَرِقُ لَفْظُ (اجْتَنِبُوا) عَنْ لَفْظِ (لا تقربوا)، فِي كَوْنِ (الاجْتِنَابِ) دَالًّا عَلَى الْبُعْدِ، فَالاجْتِنَابُ يُرَادُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي نَاحِيَةٍ وَجَانِبٍ بَعِيدٍ⁽³⁾؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقُّ مِنَ الْجَنْبِ وَالْجَانِبِ، وَمِنْ كَوْنِ الْجَنْبِ نَاحِيَةً خَارِجِيَّةً، جَاءَ مَعْنَى الْبُعْدِ وَالْإِبْعَادِ⁽⁴⁾، وَهُوَ بِذَلِكَ أْبْلَغَ مِنْ لَفْظِ (لا تقربوا)، لِمَا فِيهِ مِنْ مَعَانٍ مَجَازِيَّةٍ تَزِيدُ عَنِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّةِ، لِمَجَرَّدِ عَدَمِ الْقُرْبِ.

تَرْكُ الْأَوَامِرِ
أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ
مِنْ ارْتِكَابِ
الْمَنَاهِي

وَيُظْهِرُ أَيْضًا الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الصِّيغَةِ، فَلَفْظُ: ﴿وَأَجْتَنِبُوا﴾ أَمْرٌ بِالاجْتِنَابِ، وَلَفْظُ: ﴿لَا تَقْرُبُوا﴾ [النساء: 43] نَهْيٌ عَنِ الْقُرْبِ، وَتَرْكُ الْأَوَامِرِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ارْتِكَابِ الْمَنَاهِي، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ عَدِيدَةٍ، مِنْهَا أَنَّ آدَمَ ﷺ نَهِيَ عَنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَتَابَ عَلَيْهِ، وَابْلِيسُ أَمَرَ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ، فَلَمْ يَسْجُدْ، فَلَمْ يُتَبَّ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا أَنَّ ذَنْبَ ارْتِكَابِ النَّهْيِ مَصْدَرُهُ فِي الْغَالِبِ الشَّهْوَةُ وَالْحَاجَةُ، وَذَنْبُ تَرْكِ الْأَمْرِ مَصْدَرُهُ فِي الْغَالِبِ الْكِبَرُ وَالْعِزَّةُ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ، وَيَدْخُلُهَا مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَإِنْ زَنَى، وَسَرَقَ⁽⁵⁾.

وَيَشْتَرِكُ لَفْظُ ﴿وَأَجْتَنِبُوا﴾ مَعَ لَفْظِ ﴿لَا تَقْرُبُوا﴾ [النساء: 43] فِي كَوْنِهِمَا أْبْلَغَ فِي النَّهْيِ وَالتَّحْرِيمِ، مِنْ لَفْظِ (حَرَّمَ)؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُمَا

(1) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 136.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (بعث).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (جنب).

(5) ابن القيم، الفوائد: 1 / 171.

البُعْدُ عَنِ الشَّيْءِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلِأَنَّ الْقُرْبَ مِنْهُ إِذَا كَانَ حَرَامًا، فَيَكُونُ
الْفِعْلُ مُحَرَّمًا مِنْ بَابٍ أَوَّلِيٍّ⁽¹⁾، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْحَرَمَةُ شَدِيدَةً؛ جَاءَ
التَّعْبِيرُ بِأَحَدِهِمَا.

الطَّاغُوتِ وَالشَّيْطَانِ:

لَفْظُ (الطَّاغُوتِ)
أَعْمَمٌ مِنْ لَفْظِ
(الشَّيْطَانِ)،
وَأَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ
فِي السَّبَاقِ

لَفْظُ الطَّاغُوتِ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، مِنْ حَجَرٍ
أَوْ صُورَةٍ أَوْ شَيْطَانٍ⁽²⁾، فَيَكُونُ لَفْظُ الشَّيْطَانِ بِهَذَا الْمَعْنَى دَاخِلًا
فِي مَعْنَى الطَّاغُوتِ؛ إِذْ كُلُّ رَأْسٍ فِي الضَّلَالَةِ مِنْ شَيْطَانٍ أَوْ غَيْرِهِ
يُسَمَّى طَاغُوتًا⁽³⁾، أَمَّا لَفْظُ الشَّيْطَانِ؛ فَهُوَ وَصْفٌ يَقَعُ عَلَى كُلِّ عَاتٍ
مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالِدَّوَابِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِيِّ عَدُوًّا شَيْطَانٍ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا
إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: 14]؛ أَيِ: الْمُنَافِقُونَ وَالْكُفَّارُ مِنَ
الْيَهُودِ⁽⁴⁾، وَاشْتِقَاقُ الطَّاغُوتِ مِنَ الطُّغْيَانِ وَمُجَاوَزَةِ الْحَدِّ⁽⁵⁾، وَاشْتِقَاقُ
الشَّيْطَانِ إِمَّا مِنَ الشَّطَنِ، وَهُوَ التَّبَاعُدُ عَنِ الْخَيْرِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: دَارٌ
شَطُونٌ، أَيُّ: بَعِيدَةٌ⁽⁶⁾، وَإِمَّا مِنَ الْفِعْلِ (شَاطَ) بِمَعْنَى: احْتَرَقَ أَوْ هَلَكَ،
فَالشَّيْطَانُ هَالِكٌ لِنَفْسِهِ وَشَرُّهُ⁽⁷⁾، فَيَتَّضِحُ بِهَذَا أَنَّ لَفْظِي (الطَّاغُوتِ)
(وَالشَّيْطَانِ)، يَشْتَرِكَانِ فِي الْعَتُوِّ وَتَجَاوُزِ الْحَدِّ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ
(الطَّاغُوتِ) أَعَمَّ وَأَشْمَلَ، وَيَخْتَلِفَانِ فِي الْاِشْتِقَاقِ اللَّغَوِيِّ.

(حَقَّتْ) وَ(حَقَّتْ):

تَغَيَّرَ الْحَرَكَاتُ،
وَأَثَرُهُ فِي تَنَوُّعِ
الدَّلَالَاتِ

وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَنْهُهُمْ مِّنْ هَدَى اللَّهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ
عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، لَفْظُ (حَقَّتْ) مَبْتَنِيًّا لِلْمَعْلُومِ، وَمَعْنَى (حَقَّتْ عَلَيْهِ

(1) الصَّابُونِي، رَوَائِعِ الْبَيَانِ: 1/ 562.

(2) ابْنُ قَتَيْبَةَ، تَأْوِيلُ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ، ص: 128.

(3) الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ: (طَغُو - طَغِي).

(4) مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ دَاوُدَ، مَعْجَمُ الْفُرُوقِ الدَّلَالِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص: 141.

(5) ابْنُ فَارِسٍ، مَقَائِسُ اللَّغَةِ: (طَغِي).

(6) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ: (شَطَن).

(7) الرَّائِغُ، الْفُرَادَاتُ: (شَطَن).

الضَّلَالَةُ^(١)، أَي: وَجِبَتْ وَتَبَيَّنَتْ^(١)، وَوَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذِنْتُ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: 2]، لَفْظُ ﴿وَحَقَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: 2] مَبْنِيًّا لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، يُقَالُ: حُقَّ فُلَانٌ بِكَذَا، أَي: تَوَجَّهَ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَلَمَّا كَانَ فَاعِلُ تَوَجُّهِهِ الْحَقُّ غَيَّرَ وَاضِحَ تَعْيِينُهُ غَالِبًا؛ كَانَ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ فِي الِاسْتِعْمَالِ، وَمَرْفُوعُهُ بِمَعْنَى اسْمِ الْمَفْعُولِ، فَيُقَالُ: حَقِّقُ عَلَيْهِ كَذَا، وَهُوَ مُحَقَّقٌ بِكَذَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105]⁽²⁾.

(1) البِقَاعِي، نَظْمُ الدَّرَرِ: 207 / 09.

(2) ابْنُ عَاشُور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 219 / 30.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 4-23-768-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 4-23-768-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»